الوطن والمواطنة

تحليل ظاهرياتى

د. حسن حنفى(*)

١- مقاربات أولية

الفلسفة والوطن موضوع للفلسفة العملية طبقا لقسمة القدماء الفلسفة إلى نظرية: منطق وطبيعيات وإلهيات، وعملية: أخلاق وسياسة واقتصاد (تدبير منزلى). وهى نفس القضية التى عرفها بعض الفلاسفة المعاصرين فى الغرب باسم «الولاء» أو «الانتماء»(١). وهى قضية ملحة فى الوجدان العربى المعاصر نظرا لما هو حادث حاليا من تفتيت للأوطان فى كيانات عرقية وطائفية فى العراق والسودان والصومال، ومخاطر ذلك على لبنان وسوريا والخليج ومصر والمغرب العربى كله.

«الوطن» هو هذه الرابطة الوجدانية المشتركة التى تجمع بين أناس يعيشون فى مكان واحد وزمان واحد، أى عاملا الجغرافيا والتاريخ. و«المواطنة» هى هذه الصفة لأن يكون الفرد مواطنا أى ينتمى إلى وطن ويدين له بالولاء. أما «المواطنية» فهى ماهية المواطنة، صفة الصفة، اشتقاق عربى سليم ولكن الأذن لم تتعود عليه نظرًا لبعد الفكر العربى عن تجريد التجريد، ونظر النظر الذى قد يبعد عن الواقع العيانى المباشر أى الوطن. والمواطنة

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، غير متفرغ، كلية الآداب، جامعة القاهرة. مصر.

(١) مثل جوزايا رويس: فلسفة الولاء. J. Royce: Philosophy of Loyalty, Macmillan, 1930 ترجمة: أحمد محمود الأنصارى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

ليست مشروعًا أى إمكانية للتحقق بل هو واقع عيانى مباشر، بداهة وجدانية بتعبير برجسون، معطى أولى بتعبير هوسرل. وهى سابقة أيضًا على الدولة. فالدولة هيكل سياسى ثابت ينظم علاقات المواطنين فى سلطات ثلاث: تشريعية، وتنفيذية، وقضائية. وتسبق أيضًا النظام السياسى أى توجه الدولة واختيارها الأيديولوجى. وهى سابقة أيضًا على المجتمع، وعلى التشكل الاجتماعى للقوم فى قبيلة أو عشيرة أو عرق أو طائفة أو مذهب. والمجتمع لا يكون قديمًا أو جديدًا بل تتغير أشكاله بتغير الزمان. لا ينشأ من عدم، ولا ينتقل فى فراغ. وليس مجرد أمنية تعبر عن الضيق من القديم أو إنشاء تعودت عليه لغة الهم العربى المعاصر. الوطن هو الموضوع، والمواطنة هى علاقة الذات بالموضوع. وبتعبير الظاهريات الوطن هو «النوييم» أى الموضوع الحى بعد وضع الموضوع التاريخى بين قوسين. والمواطنة هى «النوييز» أى عقل الموضوع والقدرة على إدراكه بالحدس بقلب النظرة من الخارج إلى الداخل[1]. الوطن هو المكان والموقع والموقف. والمواطنة هى الانتماء والولاء الذى قد يصل إلى حالة العشق والفناء والشهادة.

الوطن هو القاسم المشترك الأول بين الناس، التجربة الجماعية الأولى[2]. وليس الدين الذى هو رهبة شخصية أو كما يقول كيركجارد «خشية وارتعاش»[3]. المواطنة ثقة بالنفس وانتساب لجماعة وولاء لأرض فى حين أن الدين خوف من الغيب، وإيمان بالمجهول، وتجاوز للأرض، وانسلاخ عن الجماعة. فالدولة الدينية تناقض، الدولة نظام موضوعى، والدين تجربة ذاتية. أما الدولة الوطنية فواقع أى الشكل السياسى لمجتمع فى مكان وعصر. الوطن واحد يجمع بين المواطنين. والدين متعدد فى أصله وفرعه بين المذاهب والطوائف والفرق وإن كانت وظيفة الدين السعادة والاطمئنان. ليس الوطن هو الأيديولوجيا، رأسمالية أو اشتراكية. فرأس المال لا وطن له. والأممية مثل الخلافة تتجاوز حدود الأوطان. ليس الوطن هو الطبقة. فالإنسان ينتسب إلى الجماعة قبل

---

(١) نوييم Noême، نوييز Noèse.

(٢) وهو الذى يدل عليه المقطع الألماني ـ فمثلا Urerfahrung.

(3) Kierkegaard: Crainte et Tremblèment, trad P.H. Tisseau, Aubier, Paris.

الطبقة. الجماعة وجود، والطبقة اختيار. الجماعة ضرورة، والطبقة حرية. ليس الوطن هو العرق أو اللون. فالإنسان ليس بدنه بل روحه. وليس لون بشرته بل موقفه من الحياة. وتتجاوز الفاشية والنازية والصهيونية حدود الأوطان لتكوين إمبراطوريات تجمع الأعراق والأجناس، وتقضى على استقلال الأوطان. ليس الوطن هو الدولة. الدولة بنية سياسية لتنظيم اجتماعى لمجموعة من الناس فى مكان وزمان معينين. هناك دول عربية متعددة ووطن عربى واحد. ليس الوطن هو النظام السياسى. فالوطن باق، والنظام السياسى متغير. الوطن هو الثابت، والنظام السياسى هو المتحول. الوطن هو اللغة فليست العروبة بأب أو أم إنما العروبة هى اللسان، فى كل من تكلم العربية فهو عربى. «الوطن» هو التاريخ المشترك، والهم المشترك، والوجدان المشترك. هو التعاطف الوجدانى فى المواقف الإنسانية المتشابهة خاصة مواقف القهر والتسلط والظلم والفقر والتهميش والإقصاء، و«كل بلاد العرب أوطانى».

وإذا كانت الظاهريات تبدأ بالإدراك الحسى كما فعل ميرلو بونتى فى «ظاهريات الإدراك الحسى»[1]، قبل أن تتحول إلى سلوك فى «بنية السلوك» فإن الوطن موضوع للمشاهدة والمعاينة والإدراك الحسى المباشر. هو الرؤية للطبيعة، للأنهار والوديان، للجبال والسهول، للبحار والشواطىء، للساحل والصحراء، لخضرة الزرع وصفرة الرمال، لزرقة السماء وسمار الجبال لصفرة الشرق واحمرار الغروب[2] يدرك بالبصر، نهر مصر وصحراؤها، جبل لبنان وشاطؤه. ويسمع بالأذن فى تغريد البلابل، وصياح الديكة، وحفيف أوراق الشجر، وزعيق الناس، وأنين المظلوم وتأوهات المرضى، وضجيج العربات، وضوضاء المدن، وهتافات القديسين والأولياء، وصلوات المؤمنين، وترانيم الكهنة، وسماع الصوفية. يُعرف بالشم كما شم يعقوب ريح يوسف وكما يشم المواطن روائح الفل والياسمين والورد وعطورها. ويدرك بالذوق فى شرب النعناع

(1) M. Murleau Ponty, Phènomènologie de la Pérception PNF, Paris, 1960.

- Structure du Comportment, NRF, Paris, 1945.

(٢) انظر دراستنا: «الأخضر والأصفر فى القرآن الكريم»، هموم الفكر والوطن، حـ١، التراث والعصر والحداثة، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ص٨٧-٦٨.

والقرفة والجنزبيل وفى طعوم الملوخية والبصارة والفول والفلافل. وهو أيضا موضوع اللمس، حرير الشام، وجسد المرأة إلى آخر ما تغنى به الشعراء والزاجلون «أصله ما عداش على مصر». الوطن فى القلب، فى ذكريات الطفولة والبكاء على الإطلال وفى السيرة الذاتية.

وطنى وإنِ شغلت بالخلد عنه ∴ نـازعتنـى فى الـخلـد نفسـى

الوطن هو العالم المحيط، بشر وحجر. هو المجال الموضوعى للذات وميدان حركتها. الوطن هو الجسم الكبير الذى يتحرك فيه الجسم الصغير. هو العالم الأكبر الذى يغوص فيه العالم الأصغر بتعبير إخوان الصفا[1]. الوطن هو المياه التى تعيش فيها الأسماك. وصيد الأوطان مثل صيد الأسماك إخراجها من محيطها. ومياه بلا أسماك لا تطعم. وأسماك بلا مياه لا تعيش.

٢- التأصيل التاريخى

وهو موضوع قديم وشائع فى كل الحضارات، وليس وليد اللحظة الراهنة فى الوجدان العربى المعاصر وأزمته الاجتماعية والسياسية والثقافية. ظهر فى الشرق القديم، فى الصين فى علاقة المواطن بالدولة، وفى الهند فى علاقة الهندى بالطائفة أو التراتبية الدينية، وفى فارس فى دواوين الدولة، وفى حضارات ما بين النهرين فى ارتباطه بالأرض والفلاحة، وفى مصر القديمة فى علاقته بالكاهن وفرعون[2]. كما ظهر عند اليونان فى علاقة الفرد بالمدينة فى الدولة - المدينة، أثينا وأسبرطة أو علاقته فيما بعد بمجموع الإمبراطورية اليونانية أو الرومانية[3]. ثم جاءت المسيحية وربطت المواطن بالإيمان وبالولاء الروحى. ولما تأسست فى كنيسة أصبح المؤمن عضوا فيها. ولما تعددت الكنائس

(١) رسائل إخوان الصفا، دار صادر، بيروت١٩٥٧، حـ٥، الرسالة(١٢) فى قول الحكماء إن الإنسان فى عالم صغير، ص٤٥٦- ٤٢٩.

(٢) التراتبية الدينية Cast-System.

(٣) الدولة المدينة City-State.

تعددت الولاءات الكنيسية، شرقى غربى، كاثوليكى أورثوذكسى، بروتستانتى. ولكل كنيسة فروعها. ولما صاحب الإقطاع الكنيسة ارتبط الفرد بالإقطاعية وبالسيد. ولما ظهر النظام الملكى مصاحبا للإقطاع أصبح الفرد من الرعية.

وفى الحضارة الإسلامية تحول الولاء «الجاهلى» للقبيلة إلى ولاء أرحب وأوسع للعروبة والإسلام فى مواجهة الفرس والروم، كأقوام ونظم سياسية «استعمارية»، كسروية ورومانية. وانتسب المسلم إلى مصر من مجموع الأمصار أو ولاية من مجموع الولايات أو إلى أسرة أو دولة، الأموية والعباسية، الفاطمية والطولونية والإخشيدية والساسانية والصفوية والعثمانية...الخ. وكلها فى دولة أو نظام الخلافة المركزية فى دمشق أو بغداد أو القاهرة أو استانبول.

وأسست الخلافة النظام «المللى» الذى يقوم على الهوية الدينية فى تعددية مذهبية وخصوصيات ثقافية ولغوية فى إطار الخلافة. ثم تحولت هذه الملل مثل الأرمن والعرب «شعوب البلقان» إلى حركات وطنية استقلالية ضد الأتراك. ثم وقعت الدول الوطنية الحديثة تحت الاستعمار الغربى الذى كان طامعا فى وراثة تركة الرجل المريض. ثم نشأت حركات استقلال وطنى ثانية ضد الاستعمار. ونشأت الدول الوطنية الحديثة[1]. «الوطن والمواطنة». مفهومان حديثان مرتبطان بالعصور الحديثة فى الغرب بعد ثورته ضد الكنيسة والإقطاع والملكية، وكل الدعوات الأممية الدينية والاقتصادية والسياسية.

اندلعت الثورات السياسية ضد الملكيات مثل ثورة كروميل فى انجلترا فى القرن السابع عشر. ثم اندلعت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر. وقدمت مفهوم المواطن مع مفهوم الإنسان، وكما تجلى فى «الإعلام العالمى لحقوق الإنسان والمواطن». وتأكد المفهوم من جديد عندما انهارت الإمبراطوريات الروسية والنمساوية والفرنسية وغيرها فى القرن التاسع عشر لصالح القومية والتى على أساسها قامت الدول القومية فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وباقى دول أوربا الغربية خاصة. وقامت ليس فقط

(١) الدولة الوطنية الحديثة New Nations-State.

على مكونات جغرافية وتاريخية وثقافية ولغوية بل أيضًا على مكونات عرقية عنصرية. وظهرت أدبيات الشخصيات القومية لتحدد خصائص الشعوب،أمزجتها وعقلياتها وصفاتها الثابتة، فى مقابل الشعوب اللاأوروبية وعقليتها «البدائية» وفكرها «البرى». واستمرت هذه النزعات حتى النصف الأول من القرن العشرين فى النازية والفاشية والصهيونية. ثم قامت العولمة فى النصف الثانى منه بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية لتكوين عالم ذى قطب واحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية تتجاوز حدود الأوطـان. وتستأنف عمل الشركات المتعددة الجنسيات. وتكوّن إمبراطورية اقتصادية جديدة مثل مجموعة الدول الثمانية الأكثر تصنيعا. فالخلاف الآن ليس بين الشرق والغرب، فاليابان مصنعة قدر أمريكا بل بين الشمال والجنوب، بين التقدم والتأخر، بين الإنتاج والاستهلاك، بين الغنى والفقر... إلخ. تهدد العولمة بابتلاع الأوطان. وتتطلب تخلى الدولة عن سيادتها الوطنية لصالح قوانين السوق. أصبح العالم قرية واحدة بعد ثورة الاتصالات. وعادت روح الإمبراطوريات والأممية من جديد باسم العولمة وهى أحد أشكال هيمنة المركز على الأطراف ولامتصاص حركات التحرر الوطنى ضد الاستعمار فى الخمسينيات والستينيات.

والآن يعيش العرب أزمة طاحنة بحيث أصبح وجودهم كأمة وشعب ووطن مهددًا فى التاريخ. فمنذ قيام الثورة الكمالية فى ١٩٢٣، وانهيار الخلافة فى ١٩٢٤، بدأت الدول الوطنية الحديثة بحدود مصطنعة من وضع الدول الاستعمارية الكبرى مثل انجلترا وفرنسا خاصة فى مصر بعد ثورة ١٩١٩. ونشأت الدولة الليبرالية بدساتير حديثة مثل دستور ١٩٢٣، ومعاهدات مع القوى الاستعمارية مثل معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا من أجل الاستقلال. ثم قامت الثورات العربية الحديثة فى منتصف الخمسينيات لاستكمال حركة التحرر الوطنى باتفاقية الجلاء فى مصر عام ١٩٥٤، واستئناف النضال الوطنى فى الخمسينيات والستينيات، من المحيط إلى الخليج. فاستقلت دول المغرب العربى ليبيا وتونس، والجزائر، والمغرب ودول المشرق العربى سوريا، ولبنان، والعراق، والأردن، والكويت، والإمارات، واليمن. والدول العربية الأفريقية السودان والصومال. وجمعتها

القومية العربية بزعامة مصر. وقامت أول تجربة حدوية قومية فى تاريخ العرب الحديث بين مصر وسوريا، تجربة الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١. ثم انهار الحلم القومى بعد هزيمة يونيو - حزيران عام ١٩٦٧. واستمر الانهيار بعد العدوان العراقى على إيران فى ١٩٨٠، وظهور التناقض بين القومية العربية والثورة الإسلامية فى حرب الخليج الأولى، ثم العدوان العراقى على الكويت عام ١٩٩٠، وظهور التناقض بين القومية والقطرية، بين العروبة والأوطان بعد حرب الخليج الثانية. ووقعت الحرب بين ليبيا وتشاد، وتناقضا بين القومية العربية، والزنجية الأفريقية، بين الساحل والصحراء. واستمر الانهيار العربى بعد حصار العراق على مدى أكثر من عشر سنوات ثم العدوان الأمريكى عليه عام٢٠٠٣، واحتلاله كلية بمشاركة دول عربية وبمباركة أخرى. ومازال الانهيار مستمرا بعد التدخل الأثيوبى فى الصومال، وهى عضو بالجامعة العربية مثل العراق، والعدوان الأمريكى عليه جوا وبرا بدعوى مطاردة الإرهاب الممثل فى تنظيم القاعدة. واندلعت الانتفاضات فى فلسطين الأولى والثانية. وترك العرب شعب فلسطين وحيدًا وسط ذبح مقاتليه وقتل أطفاله ونسائه وشيوخه وتدمير منازله وتجريف أرضه وإقامة الجدار العازل وسط مائتى وخمسين مليون عربى. ثم برزت القطرية «مصر أولا»، «الأردن أولا»، «الكويت أولا». تجد حماية لها فى الغطاء الأمريكى وفى القواعد الأمريكية وفى الصلح مع إسرائيل والاعتراف بها وعودة المنطقة العربية كلها إلى عصر الأحلاف ومناطق النفوذ. واندلعت الصراعات والحروب الحدودية بين الأقطار، بين المغرب والجزائر، بين مصر والسودان، بين اليمن والسعودية، بين الإمارات وعُمان، بين الكويت والعراق، بين قطر والبحرين، بين سوريا ولبنان، لتتآكل الأوطان من الخارج. ووقعت الحروب الأهلية داخل الأوطان فى الجزائر ولبنان والسودان والصومال والمغرب، لتفتيت الأوطان من الداخل. والآن الأوطان كلها مهددة بالتجزئة والتفتيت العرقى والطائفى والمذهبى وتحويل المنطقة كلها إلى دويلات شيعية وسنية وكردية وتركمانية وعربية وبربرية وزنجية وإسلامية وقبطية حتى تصبح إسرائيل أكبر دولة عرقية طائفية فى المنطقة، تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية وليس من الأساطير الأولى المكونة لدولة اليهود أيام هرتزل، أساطير المعاد وشعب الله المختار.

٣- الوعى الذاتى

ويتخلق الإحساس بالوطن والمواطنة فى تجليات الوعى من الوعى الذاتى إلى الوعى بالآخر إلى الوعى بالعالم. وهى الدوائر الثلاث فى التكوين الظاهرياتى: الوعى، والوعى بالآخر، والوعى بالعالم. من علم النفس إلى علم الاجتماع إلى الفلسفة أو الميتافيزيقا فى ثلاث دوائر متداخلة مشتركة فى المركز.

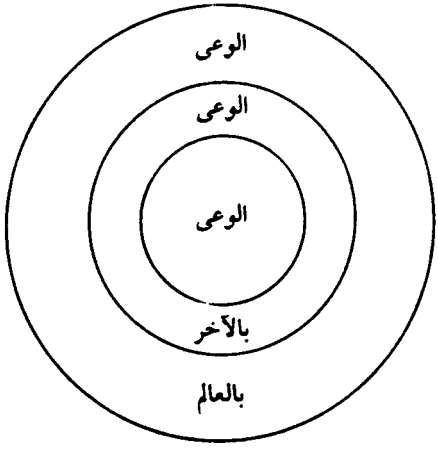

الوعى الذاتى هو أول تجربة وجودية تثبت الذات. وأول حقيقة بديهية يبدأ منها نسق العلم. وهو فى نفس الوقت وعى بالموضوع. فالذات ليست فارغة بل ذات وموضوع فى نفس الوقت. كل شعور هو شعور بشىء. وهناك إحالة متبادلة بين الذات والموضوع فى وحدة واحدة من الذات إلى الموضوع، ومن الموضوع إلى الذات.

وهو وعى بالزمان والعصر والتاريخ. الزمان نسيج الذات ومادته الأولى. والعصر هو الزمان الآنى الذى تعيشه الذات. والتاريخ هو تراكم الخبرات فى الذات عبر العصور، وتحول الآن إلى ذاكرة. الذات وعى داخلى بالزمان فى أبعاده الثلاثة، الماضى والحاضر والمستقبل، الماضى باستدعاء الذكريات، والحاضر فى التوتر، والمستقبل فى الاستباق[1].

(١) استدعاء الذكريات Retention. التوتر Tention. الاستباق Protention.

والوعى بالعصر هو أيضا وعى بالمكان والموقع والإقليم وبالعالم. لذلك ربط الفلاسفة دائما بين الزمان والمكان مثل أرسطو وكانط حتى ولو فرق آخرون بينهما مثل برجسون حرصًا على الزمان دون رده إلى عدد الحركة منذ أرسطو حتى اينشتين.

الوعى الذاتى يتجاوز «الكوجيتو الديكارتى»: أنا أفكر إذن فأنا موجود. فهو وعى خارج الزمان والمكان، هوية صورية فارغة، إنسان طائر بتعبير ابن سينا. ويتجاوز أيضًا الثورة الكوبرنيقية عند كانط التى تعطى الأولوية للذات على الموضوع، الذات ثابتة والموضوع يدور حولها فى تصور رياضى فلكى فارغ خارج الزمان والمكان، وإن كان الموضوع هو العالم كله.

الوعى الذاتى ليس هو حالة «النيرفانا» الهندية، الوعى الذاتى الخالص، الفارغ، السلبى للخلاص من شرور العالم بل هو الوعى الذاتى الذى يتضمن بداخله الوعى بالعالم. هو الذى وصفه فشته فى «نظرية العلم»، وهيجل فى «ظاهريات الروح» الذى يبدأ من «هنا» و «الآن». وهو قانون الهوية الذى تكون فيه الذات مساوية لنفسها قبل أن تكون مختلفة عن غيرها. هى الهوية التى يجعلها الإنسان فى بطاقته الشخصية ولا يجوز انتزاعها منه. وهى هوية الوطن[1]. ويخاطر الوعى بالذات بتغييب الوعى أو الوعى المغترب أو اغتراب الوعى، والتحول من الوعى بالذات إلى الوعى بالآخر. ويسبق الوعى بالآخر الوعى بالذات، ويصبح الوعى بالذات تاليا للوعى بالآخر ومعتمدا عليه. فالآخر هو الذى يعطى الذات وجودها، ويحدد لها موقفها، ويعيّن لها اتجاهها. من عرف نفسه فقد عرفه به أو من عرف نفسه فقد وجد العالم.

وقد يغترب الوعى بالذات فى الوعى بالله، هو الاغتراب الدينى، وإطلاق صفات الذات خارج الوعى الذاتى إلى مشجب خارجى تعلق عليه الذات صفاتها. وبدلا من أن تحققها كنظم مثالية للعالم تناجيها وتتعبدها وتؤلهها. فالله تأليه[2]. وقد تغترب الذات

---

(١) وهى الهوية التى عبر عنها محمود درويش فى رومانسيته الشهيرة «سجل، أنا عربى».

(٢) انظر دراستنا: «الاغتراب الدينى عند فيورباخ»، دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٢، ص٤٠٠-٤٤٥.

فى الجاه والسلطان، فى القوة والسلطة مؤلهة ذاتها. تخرج قوتها الذاتية من الداخل إلى الخارج، من النفس إلى الجيش، ومن الروح إلى الشرطة، ومن الضمير إلى أجهزة الأمن. وهو الاغتراب السياسى. وقد تغترب الذات فى المال والثروة، فى الرزق والكسب بلا حدود. تتحول الثروة إلى غاية فى حد ذاتها والاكتناز، وليس وسيلة للأعمار والتنمية وتوزيعها على الآخرين. وهو الاغتراب الاقتصادى. وقد تغترب الذات فى ملذات الحياة والاستهلاك بلا حدود. فتعيش على مستوى الأشياء والإشباع والحياة العضوية. وهو الاغتراب المادى. وقد تغترب الذات فى المصلحة الشخصية وإيثارها على مصالح الآخرين. وتتحول إلى أنانية دون غيرية. وهو الاغتراب الأخلاقى.

وقد يتحول الاغتراب إلى وهم عن طريق الإلهام باستعمال المخدرات وتغيب الوعى إراديا، هروبا من الوعى بالعالم وهو إيهام الوعى. وهو ما يفعله الإعلام المزيف لتعيير الحقائق حتى يصبح الوعى فارغًا بلا مضمون وإيهامه بوضع آخر لا وجود له. وهو تزييف الوعى. وهو ما يفعله النظام الشمولى عندما يعطى الأولوية للنظام على الفرد وللكثبان على ذرات الرمال، وهو ما دفع كيركجارد إلى الثورة على هيجل، وهو قهر الوعى. وهو ما يفعله التقليد وما تقوم به الأيديولوجيا فى «لا تفكر نحن نفكر لك». كما تفعله الفرقة الناجية والأحادية الفكرية وهو إقصاء الوعى. وهو ما تفعله التبعية السياسية وهو ذوبان ما يظن أنه ضعيف فى الآخر الأقوى فى سياسة الأحلاف ومناطق النفوذ والقواعد العسكرية داخل الأوطان.

وقد يقترب الوعى الذاتى بتشيئه فى المادة كما وصف ماركس الشاب وضع العامل فى المجتمع الرأسمالى، وعلاقة العمل بالإنتاج، وكما وصف الوجوديون علاقة الذات بالعالم وضياعه فيه، وعلاقتها بالموضوع وابتلاعها فيه. هو الاغتراب فى الحياة الآلية الحديثة وتحويل الفرد «المتفرد»، «الوحيد»، «الأوحد» بتعبير شترنر إلى رقم متكرر فى الرقم القومى أو فى السجل المدنى أو المعاشات أو التأمينات أو فى أرقام الجلوس فى الامتحانات أو فى السجون والمعتقلات، فالسجين له رقم وليس له اسم. والزنزانة لها رقم وليست العالم المحيط. وهو الذى يبيح تعدد الزوجات ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ النساء: ٣].

وهو ما يسجله موظف التعداد السكانى وما يحصل عليه عالم الإحصاء فى الدراسات الميدانية ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨]. فالإحصاء بطبيعته ناقص مهما كانت العينة ممثلة ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦]. تعرف الأم أولادها فردا فردا دون جمعهم فى عدد كلى شامل.

يقترب الوعى الذاتى إلى أعلى فى الدين أو إلى أسفل فى العالم أو إلى الداخل فى التصوف والمخدرات. ولا يتخارج إلى الآخر فى المجتمع أو إلى العالم الفسيح، ميدان الفعل.

٤- الوعى بالآخر

والآخر بُعد من أبعاد الذات. وأول تخارج لها بعد تأسيسها. يسبق الوعى بالعالم. فالآخر أقرب إلى الذات من العالم، والعالم أبعد عنها بالرغم من أنها وجود فى العالم بتعبير هيدجر. الإحساس بالمصرى سابق على الإحساس بمصر، والشعور باللبنانى سابق على الشعور بلبنان. ومن ثم الوطن هم القوم والأحباب والأصدقاء والرفاق والأهل والأقارب والجمع والجيرة والشلة والدفعة. وهو ما سماه ابن خلدون «العصبية». ومن هنا أتى حزن الفراق، وألم الوحدة، وعذاب الهجر، ونعيم الوصال. ومن هنا أيضا أتى غدر الأصدقاء، وخيانة الأحباب، وغدر الأحبة، وانقلاب الشلة والرفاق.

وفى الوعى بالآخر يتأسس حب الجار،وصلاة الجماعة للتضامن الاجتماعى، والصيام إحساسا بجوع الفقراء، والزكاة تدويرا لرأس المال، والحج تضامنا عاما فى الأمة. وفيه يتأسس الزواج لتكوين الأسرة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]. لم يعش آدم بمفرده بل خلقت له حواء. والنساء شقائق الرجال. والرهبنة ليست من الإسلام. وقد يصل حد التضامن خارج الأسرة والمجتمع إلى الإنسانية بأسرها كما هو الحال فى الأممية الاشتراكية أو التماسك الاجتماعى إلى حد العنصرية كما هو الحال فى الصهيونية. وفى حال العدوان تنتفض الجماعة لردعه باسم الجهاد أو المقاومة. فالأنا تضع نفسها حين

تقاوم كما هو الحال فى «نظرية العلم» عند فشته[1]. ليس الآخرون هم الجحيم بتعبير سارتر بل النعيم. وليست العلاقة بين الأنا والآخر هى علاقة أنانية بالضرورة بل غيرية. وليست علاقة كراهية ونفور بل تعاون وتضامن. وليست علاقة اقصاء متبادل بمنطق «إما... أو» بل علاقة حوار وتفاهم مشترك بمنطق «نعم... ولكن». ومن هنا نشأت ضرورة الحوار الوطنى، والحوار بين الأديان، والحوار بين الثقافات. وعلى أساسها قامت منظمات التعاون الدولى، وجمعيات الهلال الأحمر والدفاع عن حقوق الإنسان، ومنظمة العفو الدولى.

والمخاطر على الوعى بالآخر هى الأنانية والفردية أو الانعزالية والانكماش على الذات. الأنانية ابتلاع الآخر فى الذات. والانعزالية هروب الذات من شباك الآخر. الخطورة فى عادات الثأر والقتل والعدوان والحرب عندما تتضخم الأنا على حساب الآخر لدرجة عدم الاعتراف به ثم التخلص منه. الخطورة أن يتحول الآخر إلى جماعة المصلحة ورجال الأعمال والطبقة الاجتماعية، وأن يتحول الآخر كبعد للذات إلى آخر منفصل عن الذات، له مصالحه الخاصة. وفى ذلك موته ونهايته كانفصال الجذوع عن البذور، والفروع عن الجذوع، والأوراق عن الفروع.

ويأتى الخطر على الوعى بالآخر من انخراط الآخر فى طائفة أو مذهب أو أيدلوجية أو عرق أو جنس أو لون بشرة. وبالتالى تسقط عنه صبغة الآخر المساوى للأنا لصالح آخر منغلق على نفسه لا يرى نفسه بعدا للأنا أى لآخر آخر. كما قد يأتى الخطر من عمق الانتماء إلى الرهط والقبيلة والعشيرة والعائلة كأساس عضوى لعلاقة الوعى بالذات بالوعى بالآخر، الآخر بلحمه وعظمه وليس الآخر من حيث هو آخر. وهو نفس العيب فى القومية السوفيتية. وقد يجب الولاء للإقليم الولاء للآخر غير الأقليمى كما هو الحال فى التكتل المهنى والسكنى للصعايدة والبحاروة، للنوبيين والسودانيين، للبدو وللحضر. وقد يكون التكتل طبقيا فى أحياء الفقراء وأحياء الأغنياء، بين عشش الترجمان

(١) انظر كتابنا «فشته فيلسوف المقاومة»، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٣، الباب الثانى: نظرية العلم، الفصل الثانى: البنية والتطور ٣- مبادىء نظرية العلم، ص١٨٠-١٨٧.

والأباجية وبولاق الدكرور ومدينة العمال وإمبابة من ناحية،والزمالك وجاردن سيتى والمهندسين ومصر الجديدة ومدينة نصر والمدن الجديدة المغلقة من ناحية أخرى.

وتتجسد علاقة الأنا بالآخر فى النظام السياسى. والمواطنة سابقة عليه. فالديمقراطية ليست شرطا للمواطنة. بل هى تعبير عنها. وقد يبدأ حاكم لا ديمقراطى خطابه السياسى بنداء «أيها الأخوة المواطنون»، وقد يقوم نظام ديمقراطى على تمييز عنصرى بين أبيض وأسود وأسمر، كما هو الحال فى الولايات المتحدة بين الأمريكيين من أصل أوروبى أو أفريقى أو أسبانى. بل إن نموذج توزيع المناصب العليا فى الدولة بين رئاسة الدولة ورئاسة الوزارة ورئاسة البرلمان على الطوائف المختلفة، الموارنة والسنة والشيعة، تكريس للطائفية ونفى للمواطنة وحق الشعب فى اختيار الأصلح بين مرشحين متساويين بصرف النظر عن طائفته ومذهبه وعرقه حتى لا ينشأ تعارض بين الولاء للعقيدة والطائفة والمذهب من ناحية والولاء للوطن والمصالح الوطنية ومجموع الشعب من ناحية أخرى. ولا يوجد ما يسمى بما يتجاوز الأوطان إلا عبر التعاون الإقليمى مع دول الجوار قبل التعاون الدولى على مستوى العالم.

المواطنة أساس الدولة وقبلها فى التشكل الاجتماعى. المواطنة وجود، والدولة شكل من أشكال الرابطة الاجتماعية مثل القبيلة والعشرة والطائفة. ولا تتعدد المواطنة فى أشكال اجتماعية. فالمواطنة تجمعّ ولا تفرق. توحّد ولا تعدد. تتعدد المواطنة فى أنواع العمل الاجتماعى، الدفاع فى الجيش والإنتاج الزراعى والصناعى لدى الفلاحين والعمال، والإبداع الثقافى لدى المثقفين والفنانين الوطنيين[1].

٥- الوعى بالعالم

الوعى بالعالم هو البعد الثالث للمواطنة بعد الوعى بالذات والوعى بالآخر. والوعى بالعالم هو الوعى بالمكان بعد وضعه بين قوسين. هو الوعى بالموقع والموقف

(١) ما يتجاوز الأوطان. Transnational.

والالتزام، بالموضع والإقليم والنظام العالمى، بمصر أو لبنان والوطن العربى والعالم الإسلامى، بالشرق والغرب، بالشمال والجنوب، بالمركز والأطراف.

يبدأ الوعى بالعالم بالوعى بالوطن، تجمع بشرى فى الزمان والمكان وشعور الفرد أمامه بالانتماء والولاء. هو الموقع فى الوجدان، «مصر التى فى خاطرى وفى فمى»، وليس فقط مصر الجغرافيا أو التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة أو الحضارة. وهى التى يشدى بها فى الأغانى الشعبية «يا حبيبتى يا مصر» أو «بحبك يا لبنان يا وطنى». الوعى بالذات يحيل إلى الوعى بالعالم، والوعى بالآخر هو جزء من الوعى بالعالم ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وكما يحيل الوعى بالذات إلى الوعى بالعالم، يحيل الوعى بالعالم إلى الوعى بالذات. الوعى بالذات هى النفس. والوعى بالعالم هو الأفق. فالعالم أفق للنفس.

والحنين إلى الأوطان جزء من أدبيات العرب. فقد كتب أبو حيان التوحيدى رسالة فى «الحنين إلى الأوطان». وقد ذرف الرسول الدمع وهو يغادر مكة ليلة الهجرة معلنا أنها أحب الأماكن إلى قلبه لولا ظلم أهلها وخروجه مضطرا منها. ثم عاد إليها بعد الفتح. ولا هجرة بعد الفتح. فى الوطن تهيج الذكريات. ويحمله المهاجر فى قلبه حتى بعد الهجرة. وكانت أمنية الوطنى الفيتنامى قبل أن يطلق الأمريكى الرصاصة على رأسه أن يرى وطنه. وقد عظمت الفلسفات الرومانسية العودة إلى الأرحام، والولاء للأوطان كما فعل هيجل وشلنج. وتغنت كل فلسفات الواقع أيضا بالأوطان والشعوب. وعبر الفنانون عن حب الأوطان فى الأناشيد والأغانى والقصائد السيمفونية واللوح والفنون التشكيلية كما هو الحال فى نشيد «بلادى بلادى» ونشيد «المارسيليز»، وقوس النصر، وتمثال الحرية مكان سجن الباستيل، وتمثال نهضة مصر لمختار. كما عبرت فلسفات وحدة الوجود عند الصوفية عن هذا الوعى بالعالم. فالله ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الصافات: ٥]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]. وقد يواجه الوعى بالعالم عدة مخاطر منها الانعزال عنه والانسلاخ منه كما تدعو لذلك الطرق

الصوفية. فالعالم هو الدنيا ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧]. وما أكثر التراث الصوفى القديم فى سب الدنيا وبيان مثالبها ومخاطرها على استقلال الوعى. الإنسان فى الدنيا مجرد عابر سبيل على راحلة. تتوقف حياته بتوقفها مع أن هناك دعوات أخرى فى القرآن الكريم للعمل فى الدنيا وإعمارها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ومنها الخطر المقابل وهو الانغماس فيها وتبخر الوعى بالذات فى الوعى بالعالم لدرجة الضياع والتيه فيه. وهو ما صوره محمد إقبال فى شعره.

أرى الكافر حيرانا ∴ له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كونا ∴ تاهت الآفاق فيه

ومنها مخاطر تلوث البيئة ليس فقط من نفايات المصانع كما هو الحال فى الدول المتقدمة بل أيضا من روث البهائم، والبصق فى الطرقات، وإلقاء القاذورات فى الأماكن العامة. فالعالم سلب، تلقى عليه الزوائد. مع أن العالم أرض للسعى والكفاح. خلقت ذلولا ليمشى الإنسان فى مناكبها. وهنا أيضا تأتى خطورة ترك الأوطان، والهجرة خارج البلاد، ضيق فى الداخل ورحابة فى الخارج على الرغم مما ذاع من ارتباط المصرى بأرضه، والفلاح بزرعه، والفرد بعشيرته، والابن بأمه وأبيه وإخوته. هى لقمة العيش التى دفعت إلى الوقوف طوابير طويلة أمام السفارات للحصول على تأشيرة الهجرة للانضمام إلى ملايين المهاجرين فى الخارج. منهم من هاجر، ومنهم من ينتظر، بحثا عن عقد عمل أو بطاقة خضراء أو جواز سفر مزدوج.

وفى نفس الوقت يأتى الخطر المعاكس من الاستيطان واستبدال الشعوب، طرد شعب من أرضه خارج وطنه فيحمله معه فى الأدب والفن. ووضع شعب آخر محله فى غير وطنه يحمل معه فكر الأوطان التى هاجر منها، روسيا أو بولندا أو أمريكا أو أوربا أو الحبشة. فلا الذى طرد من وطنه وسلبت منه أرضه سعيدا فى المنفى، ولا الذى حل معه من وطن آخر سعيدا فى «العاليا» فى أرض المعاد. الوطن هو الذاكرة. والذاكرة هى الوطن. لذلك جاءت عقوبة التغريب للمحصن، إبعاده عن الوطن الذى عاش فيه، ومن الحبيبة التى عشقها ليشعر بآلام الفراق، وهنا أيضا تبدو حدود الأيديولوجيات

العابرة للقارات خارج الأوطان كالشركات المتعددة الجنسيات التى لم تعد عليها شعار «صنع فى مصر» أو «صنع فى الصين» أو «صنع فى إسرائيل».

٦- الحوار الوطنى

إذا كانت الأزمة العربية الراهنة بمثل هذه السهولة، أن يكون لها حل كمفتاح سحرى مثل «الإسلام هو الحل»، «العلمانية هى الحل»، «العلم هو الحل»، «أمريكا هى الحل»، «إسرائيل هى الحل» تكون «المواطنة هى الحل»، طالما فى الأصل كان الوطن[١]. الإسلام والناصرية والقومية والليبرالية والماركسية مداخل أيديولوجية للوطن. والوطن لا مدخل له إلا الوطنية والمواطنة. ويتم ذلك عن طريق تكوين جبهة وطنية أو ائتلاف وطنى أو وفاق وطنى أو إجماع وطنى على الحد الأدنى من برنامج للعمل الوطنى دفاعا عن استقلال الوطن، وحرية مواطنيه، ووحدة شعبه، والمساواة بين أفراده، والعدالة بين طبقاته، وتنمية موارده، والدفاع عن هويته، وتجنيد شعبه. الثقافة الوطنية هو القاسم المشترك بين جميع المواطنين فى مجتمع تتعدد فيه الأديان والمذاهب والطوائف والأيديولوجيات السياسية. تعددية سياسية على مستوى النظر ووحدانية عملية على مستوى العمل دون استبعاد فريق أو إقصاء طائفة أو تهميش مذهب. لا توجد فرقة واحدة ناجية وباقى الفرق هالكة. الأولى فى الجنة والثانية فى النار. لا تكفير ولا تخوين. الحوار الوطنى هو الكفيل بتقريب وجهات النظر بين الفرق. كلها شرعية. ولا يوجد حظر على إحداها دون الأخرى. الإله الواحد تتعدد صفاته. ويعطى كل دين الأولوية لصفة على باقى الصفات مثل القوة فى اليهودية، والمحبة فى المسيحية، والعدل فى الإسلام.

قد تختلف لغة الحوار من فريق إلى فريق فى حين أن المعنى واحد، فحقوق الإنسان عند العلمانى هى مقاصد الشريعة عند الإسلامى: الحياة والعقل والقيمة والعرض أو

(١) أنور عبد الملك: الوطنية هى الحل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٦.

الكرامة والثروة أو المال العام. والأيديولوجيا هى الدين. والعمل فى الأوقات والإنجاز هى الشعائر. وقد تختلف مستويات التحليل. الإنسانى عند العلمانى والإلهى عند السلفى، المصلحى فى مقابل الشرعى، النصى فى مقابل الواقعى. وقد تختلف الوظائف والصيغ، فالمستقبل عند العلمانى هو الآخرة عند السلفى. والتاريخ عند الأول هو قصص الأنبياء عند الثانى. وقد تختلف أدوات التحليل وطرق البرهان، الاستقراء والإحصاء والانتقال من الجزء إلى الكل عند العلمانى، والاستنباط والنص والانتقال من الكل إلى الجزء عند السلفى. الهدف واحد وهو تحقيق المصالح العامة. والوسيلة واحدة وهى الحصول على السلطة. والسلطة الفعلية ليست فى القصر بل فى العقل. ليست فى الجيش والشرطة وأجهزة الأمن بل فى الثقافة والرؤية والمنظور. ويرجع الخلاف إلى مصالح شخصية أو طبقية أو اختيارات أيديولوجية أو صراع على السلطة.

إنقاذ الوطن وتأكيد المواطنة يتم عن طريق هدنة مؤقتة بين فرقاء الوطن من أجل نزع فتيل الصراع بين التيارين الفكريين الرئيسين فى الثقافة، السلفى والعلمانى، من أجل وجود الحوار بينهما بدلا من الاستقطاب الحالى الذى يوشك أن يؤدى إلى فرقة وطنية قد تصل بين الحين والآخر إلى حرب أهلية كما حدث فى الجزائر، تكلف الوطن أكثر من مائة ألف قتيل.

لقد استطاعت كل ثورة أن تعزز مفهوما تضع فيه المواطنين جميعا مثل مفهوم «المواطن» فى الثورة الفرنسية، و«الرفيق» فى الثورة الاشتراكية، و«الأخ» فى التيار الإسلامى عند الإخوان المسلمين. وكان عبد الناصر يصدّر خطبه بنداء «أيها الإخوة المواطنون». ومع ذلك حتى الآن تتنازعنا مفاهيم متعددة مثل السيد والأستاذ والأفندى والشيخ والخواجة، والأخ، وصاحب السعادة، وصاحب السيادة، وصاحب الغبطة، وصاحب النيافة، وصاحب الجلالة. مازالت الثقافة العربية تبحث عن مفهوم واحد يجمعها. فهل مازال مفهوم الوطن والمواطنة بعيد المنال؟